إلى أسوان. وفي رأيي أن ذلك الموقف الجديد ــ أو في الحقيقة الذي بدا ساعتئذ جديداً ــ عبارة عن بروز وجه ثانٍ للوطنية المصرية، إلى المرتبة الأولى: الوجه الاجتماعي.

وكدت أسميه «الوجه شبه الطبقي»؛ غير أن الحالة لم تكن تبلغ بعد ــ في عمومها ـ المستوى الكافي من ارتفاع الوعي لكي نطلق عليها هذا الوصف. وإذا كان انتقال الإدراك شيئاً أكيداً في نظري، غير أنه لم يزل في مراحله الأولى لأسباب كثيرة. ومن هنا وجه الخطورة عندما يأخذ بالمبادرة مَنْ يعرف استغلال الزوايا التي ما فتئت غامضة ويكتنفها الظلام بعد في الذهن الشعبي. وهو ما حدث مع السادات ونظامه، بفضل الاشكال «الشعبانية»التي استعملها. وكان بعضها مبتذلاً رخيصاً مثل اطلاق اشاعة بأن نيكسون جلب معه سفينة مليئة بالدجاج المجمد هدية زيارة للمصريين؛ أو قوله المتكرر ان عناصر المعارضة الديمقراطية والشيوعية ينتمون إلى الطبقة المستغلة (بالكسر) لأن بينهم من يملك سخان مياه في منزله. ولكن علينا أن نعترف بأنه عرف أيضاً أن يستخدم أساليب راقية من المناورة ومن استغلال انصاف الحقائق وأشباه الوقائع: استثمر الانتصار/ الهزيمة لحرب رمضان (أليس في الالحاح على هذا الاسم من مغزى؟) لكي يكرر بلا ملل ألا فائدة من الاقتتال وسفك الدماء(*). واستثمر تفتت الجبهة العربية و«اعتدال» بعض النظم ازاءه والاستعمار الأميركي، والخطوط السياسية المزدوجة لبعض النظم الأخرى، فيقول ان ٩٠٪ من أوراق «اللعبة»(**) في يد الولايات المتحدة.

وهكذا قام النظام بتغذية بذور الفكر الغوغائي، وبتقوية انعكاساته على الرأي العام المصري العريض. ورأيت أناساً أعرفهم جيداً،وكانوا يلعنون السادات صباح مساء، وقد صاروا مغلقي الذهن لا يتحملون المناقشة بل يحولونها إلى نزاع عصبي فوراً قائلين: «هل سيأخذون نصف سيناء؟ ليأخذوه! بل ليأخذوا سيناء كلها! دعنا نرتاح، ولو لسنتين أو خمس!»،وصديق جامعي ذو اطلاع ويعطف على اليسار منذ مدة طويلة، يبدأ حديثه: «دعنا من الشعارات، ولا تكلمني عن الشرف الوطني والتراب المدنس: الام وصلنا؟ خلك عملياً وقل لي إذا كان لك حل فعلي بديل». وشخص في الطريق: «ان اليهود بشر مثلنا، وحقهم أن يعيشوا». وآخران فيما بينهما: «ومالهم اليهود؟ ألن نعرف نتاجر معهم؟».

لا شك في أن هذا كله كان تعبيراً عن فكر ضيق أناني وفردي وأعمى؛ واثبتت الأحداث أن بعضه كان خاطئاً حتى من الناحية العملية المباشرة والتجريبية البحتة، الأمر الذي جعله ينحسر بدرجة أو بدرجات. غير أن الذي يهمني مما ذكرت هو: هل كان ذلك مجرد قشور سطحية عابرة، أي تقلباً مؤقتاً في المزاج ودون صلة بما في الأعماق؟ أم كان نبتاً غير سوي لجذور ضربت منذ مدة ولم نلتفت إليها بما يكفي؟

ثم كانت حادثة قبرص (على أثر مقتل يوسف السباعي) التي مات فيها عدد من جنود الصاعقة المصريين؛ وإذا بالبعض يقول: «كيف؟ ألم نقرر ألا حرب ولا قتلى بعد اليوم؟».

(*) يذكرنا بمثل مصري قائل «ان سعد زغلول قال قبل ما يموت: ما فيش فايدة» (في اجلاء الانكليز).
(**) كذا. وهو تعبير مستعار من اللهجة الصحافية الأميركية الدارجة.